[٥٢] ثم ختم جل وعلا السورة ممتنًا علىٰ نبيه ﷺ وعلىٰ المؤمنين أنه كما أوحىٰ إلىٰ الأنبياء من قبله، فكذلك أوحىٰ إليه هذا القرآن العظيم، الذي تحيا به القلوب، كما يحيا الجسد بالروح، وما كنت يانبي الله قبل الوحي تعرف ما هو القرآن؟ ولا تعرف ما هو الإيمان؟، ولا تعرف ما هي الشرائع، ولكنه جل في علاه جعل هذا القرآن نورًا وضياءً يهدي به من يشاء من عباده، وإنك يانبي الله لترشد بإذن الله وأمره الناس إلىٰ الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام.

[٥٣] ثم بين سبحانه أن هذا الطريق هو طريق الله الذي له جميع ما في السماوات وما الأرض، لا شريك له في ذلك، وهو وحده الذي ترجع إليه جميع أمور العباد يوم القيامة؛ فيقضي بينهم بالحق والعدل؛ فالحمد لله الذي جعل المرجع والمآب إليه؛ فإنه نعم المولىٰ ونعم النصير.

## سورة الزخرف

سورة الزخرف مكية وآياتها تسع وثمانون آية.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢] بدأ جل وعلا هذه السورة بالإقسام بهذا الكتاب وهو القرآن الواضح البين؛ لشرفه وعظمته، ولما احتواه من علوم الأولين والآخرين، ومن أوامر ونواهٍ، ومن أمور الدنيا والآخرة، وما فيه من الهدىٰ والنور.

[٣] ثم أخبر جل وعلا أنه جعل هذا القرآن بلغة قريش العربية الفصيحة؛ بحيث لا يخفىٰ علىٰ من رغب في الهدىٰ والصلاح والنجاة، كما أنه جعله جل في علاه كذلك لكي تفهموه وتعقلوا معانيه، وتهتدوا إلىٰ ما فيه من الأحكام السامية والآداب العالية. وهذه الآية هي جواب للقسم في الآية الأولىٰ كما قال صاحب الكشاف.

[٤] ثم أخبر جل وعلا أن هذا القرآن محفوظ عنده في اللوح المحفوظ كسائر الكتب المنزلة علىٰ الرسل، وأنه ذو مكانة عظيمة وشريفة عنده جل في علاه، وأنه يحمل حكمًا بالغة لا يتطرق إليها تبديل أو تغيير.

[٥] ثم إن الله جل وعلا قال لهؤلاء العصاة المعاندين من الكفرة، علىٰ سبيل التأنيب واللوم: أنعرض عنكم أيها المشركون ونترك إنزال القرآن إليكم فلا نذكركم ونحذركم به؛ لأنكم منهمكون في الضلال غارقون في الفساد مصرون علىٰ التمسك بما كان عليه آباؤكم؟ فلن يحصل هذا؛ بل سنستمر في إنزال هذا القرآن علىٰ نبينا محمد ﷺ، ونقيم الحجة عليكم، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر.



وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ
وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ
وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

## سُورَةُ الزُّخْرُفِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا
لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا
لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا
أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ
﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ
مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾



[٦] ثم ذكَّر جل وعلا هؤلاء المشركين بما حصل للأمم التي أرسل إليها الرسل، وذلك تسلية لنبيه ﷺ، فقال جل في علاه: ولقد أرسلنا يانبي الله كثيرًا من الأنبياء في الأمم التي مضت قبل قومك.

[٧] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المشركين ما يأتيهم من نبي يأمرهم بتوحيد الله وعبادته إلا استهزؤوا به، وسخروا منه، كاستهزاء قومك بك يانبي الله، فكانت نتيجة فعلهم أن أهلك الله من هم أشد وأكثر قوة من قومك، بسبب كفرهم وطغيانهم، ومضت أخبارهم وصارت مثلًا يُروىٰ؛ وهاأنتم تمرون بآثارهم وتعرفون أخبارهم؛ فاحذروا أن يكون مصيركم مثل مصيرهم.

[٩] ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: ولئن سألت يانبي الله هؤلاء المشركين المكذبين المستهزئين: من الذي خلق السماوات والأرض وأوجدهما من العدم؟! فسوف يقرُّون قائلين: لقد خلقهن الله العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات، العليم الذي أحاط علمه بكلّ شيء.

[١٠] وأضاف سبحانه أنه هو الذي ذلَّل لعباده الأرض ومهَّدها وفرَشها وبسطَها، وجعل لهم فيها طُرُقًا يسلكونها إلىٰ حيث يقصدون، لعلهم يهتدون بسلوكها في سيرهم وأسفارهم إلىٰ مقاصدهم وغاياتهم، ولعلهم أيضًا يهتدون إلىٰ مبدع هذا الكون فيؤمنون به ويشكرونه.

وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾



[١١] وأخبر سبحانه أنه هو الذي نزَّل من السماء ماءً بقدر الحاجة والمصلحة، فلم يجعله طوفانًا يغرقهم ولا شحيحًا لا يكفي حاجتهم، وهذا الماء أحيا به سبحانه بلدة كانت قاحلة يابسة، ليس فيها زرع ولا نبات، واعلموا أنه كما أخرج سبحانه هذا النبات وهذه الأشجار من هذه الأرض القاحلة اليابسة؛ فإنه هو الذي يخرج الموتىٰ من قبورهم يوم القيامة.

[١٢] وأخبر سبحانه أنه هو الذي خلق الأصناف كلها وأوجدها من العدم، وسهل لكم ركوب السفن البحرية، وذلل لكم ركوب أنواع من البهائم كالخيل والبغال والحمير والجمال.

[١٣] ثم بين سبحانه أنه خلق هذه السفن وهذه الأنعام لتستقرُّوا علىٰ ظهورها؛ ويدخل في ذلك المركوبات الحديثة من سيارات وطائرات وغيرها، ثم تتذكروا نعمة ربكم في تسخيرها لكم، وتقولوا عند ركوبكم: سبحان الذي سخر لنا هذا الذي نركبه وذلَّله لنا، ولولا تسخيره لنا لما كنا مطيقين لذلك ولا قادرين عليه، ولا ضابطين له.

[١٤] وتقولوا عند ركوبكم أيضًا: وإنا إلىٰ ربنا لراجعون وصائرون إليه.

[١٥] ثم أخبر جل وعلا عن تناقض هؤلاء المشركين الذين إذا سُئِلوا: من خلق هذا الكون؟ فيقولون: خلقه الله، ومع ذلك فإنهم يعتقدون أن الملائكة بنات الله، فكيف تكون الملائكة بناته وهم من جملة خلقه جل في علاه؟ تعالىٰ الله عما يقول هؤلاء المجرمون علوًّا كبيرًا، وهذا القول الصادر من هذا الإنسان الكافر؛ لأنه شديد الكفر والجحود لنعم الله التي أنعم بها عليه، وهذا يتضح من خلال أقواله وأفعاله.

[١٦] ثم قال جل وعلا توبيخًا لهؤلاء المشركين: أتزعمون أيها المشركون أن الله اتخذ لنفسه مما يخلق بنات، وأنه خصَّكم بالبنين؟، ألا تخجلون من هذا القول الشنيع؟ هل يُعقل أن يتخذ الله أولاده من البنات اللائي تحتقرونهن وهن أقل منزلة ودرجة من البنين، ويترك لكم البنين الذين تحبونهم؟.

وهذه الآية نزلت ردًّا علىٰ جماعة من خزاعة حيث قالوا: إن الملائكة بنات الله.

[١٧] ثم وجه سبحانه لهم توبيخًا آخر فأخبر أن هؤلاء المشركين إذا بُشِّر أحدهم بالأُنثىٰ - التي ينسبها لله - تعالىٰ الله عن ذلك وتقدَّس -؛ فإنه يسودّ وجهُهُ من شدة الكراهة والبغض والحزن بسبب كونها أنثىٰ، ويظل شديد الحزن ممتلئًا غيْظًا وحنقًا، ومع ذلك تنسبون لله البنات، فتبًّا لكم أيها الجاهلون بعظمة الله وعزته وغناه عن الولد؛ سواء ذكرًا أو أنثىٰ.

[١٨] وهذا توبيخ آخر يوجهه سبحانه لهؤلاء المجرمين، فيقول جل في علاه: أتنسبون لله البنات التي تنشأ في الزينة، ولا تستطيع إظهار حجتها إذا خوصمت بسبب ضعفها؟!!

[١٩] وهؤلاء المشركون الذين تجرأوا وقالوا: بأن الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا!! هل حضروا وقت خلقِهم؟! كلَّا، إنهم لم يكونوا حاضرين، ولذلك سيكتُب الله قولَهم وشهادتهم، ويسألهم عنها يوم القيامة، ويعاقبهم علىٰ هذا الافتراء الشنيع.

[٢٠] وقال هؤلاء المشركون من أهل مكة علىٰ سبيل الاحتجاج بالأعذار الباطلة: لو شاء الرحمن لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، قالوا ذلك من غير علم أو برهان، وإنما قالوه تخرصًا وكذبًا.

وقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾، كلمة حق أرادوا بها باطلًا، فكونه سبحانه لم يمنعنا عن عبادتهم وهو قادر علىٰ منعنا دليل علىٰ أننا علىٰ حق، ورتبوا علىٰ ذلك أن الله راضٍ عن فعلهم، وتناسوا أنَّ منعهم يتنافىٰ مع كونهم مختارين، وهذا هو الباطل، ومعلوم أن الله جعلهم مختارين غير مجبورين؛ فاختاروا الكفر والشرك والضلال علىٰ الهدىٰ؛ فلو منعهم جل في علاه لما كانوا مختارين مكلفين، وقد كذب الله ظنهم هذا في آيات أخرىٰ، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[الزمر:٧].

[٢١] ثم سأل جل وعلا علىٰ سبيل الاستنكار: هل أنزلنا علىٰ هؤلاء المشركين كتابًا - قبل القرآن - يخبرهم بصحة أقوالهم وأفعالهم؟! ويأمرهم بالشرك؟!! فهم متمسِّكون بهذا الكتاب يأخذون بما فيه، ويحتجون به؟!

[٢٢] فأجاب سبحانه علىٰ مقولتهم بأن الجواب: لا؛ وإنما احتجّ هؤلاء المشركون بحجّةٍ واهيةٍ باطلة، وهي قولهم: إنا وجدنا آباءنا علىٰ ملةٍ ودين، وإنا علىٰ طريقتهم وملّتهم ماشون سائرون.

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ
إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣
* قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ
قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٢٥ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ
إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ
٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٨ بَلۡ
مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ٢٩
وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٠ وَقَالُواْ
لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمۡ
يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم
بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٣٢ وَلَوۡلَآ
أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ
لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ٣٣



[٢٣] ثم يسلي جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ فيقول له: وما أرسلنا من قبلك في أمة من الأمم من نبي ولا رسول ينذرهم عن الشرك، ويأمرهم بالتوحيد إلا قال أشرافُ وَمُنَعَّمُوا أهل هذه الأمم: إنا وجدنا آباءنا علىٰ ملَّة ودين، وإنا علىٰ خطاهم سائرون، نقتدي بهم، ونمشي خلفهم.

[٢٤] ثم يقول لهم هذا الرسول المرسل إليهم: ما رأيكم لو أني جئتكم بخير مما وجدتم عليه آباءكم؟! أفبعد ذلك تتبعون آباءكم ولا تتبعوني؟! فما كان جوابهم لرسلهم إلا أن قالوا: إنا بما أرسلتم به -من التوحيد والبعث والنشور- كافرون جاحدون غير مصدقين.

[٢٥] فما كان منه جل وعلا إلا أن انتقم من هؤلاء المجرمين لما كذبوا الحق واتبعوا أهواءهم؛ فأهلكهم ودمرهم، فانظر يانبي الله كيف كان عاقبة المكذبين لأنبياء الله ورُسُله، وكيف كان مصيرهم! فليحذر قومك من تكذيبك فيصيبهم مثل ما أصاب الأمم من قبلهم.

[٢٦] واذكر يانبي الله يوم أن قال إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه الذين كانوا يعبدون ما يعبده قومك: إنني براء مما تعبدون من دون الله.

[٢٧] ثم استثنىٰ عليه السلام فقال: إلا الذي خلقني وأوجدني من العدم؛ فإنه سيهديني ويوفقني لطريق التوحيد والحقّ والصواب، ولما يصلح ديني ودنياي، وسبب استثنائه لله من بين المعبودات؛ لأنهم كانوا يعبدون الله مع أصنامهم.

[٢٨] ثم إن الله جل وعلا بفضله وكرمه جعل كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) باقية في عقب إبراهيم وفي ذريته، والبراءة من الشرك خصلةً حميدةً باقيةً في ذريته من بعده؛ لعله يرجع إليها من يُشرك من ذريته بدعوة من يوحد منهم.

[٢٩] ثم أخبر جل وعلا أنه متع هؤلاء المشركين وآباءهم بالحياة وإبقائهم فيها، ولم يعاجلهم بالعقوبة والهلاك؛ فاغترُّوا بالمُهلة وأكبوا علىٰ الشهوات، حتىٰ جاءهم القرآن الكريم، وجاءهم محمد ﷺ يبين لهم التوحيد، ويحذرهم من الشرك.

[٣٠] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المشركين لما جاءهم الحق - الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه علىٰ لسان محمد ﷺ - بهذا القرآن العظيم، كفروا به وجحدوه وقالوا: ما هذا إلا سحرٌ جاءنا به محمد ليسحرنا به، وإنا بما جاءنا به كافرون جاحدون.

[٣١] ثم بين جل في علاه أن هؤلاء المشركين لما بهرهم هذا القرآن وعرفوا أنه من عند الله كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]، قالوا علىٰ سبيل العناد والحسد: إنْ كان هذا القرآن مِن عند الله حقًّا، فهلا نُزِّل علىٰ رجل عظيم في ماله وسلطانه، من إحدىٰ هاتين القريتين مكة أو الطائف، قال قتادة وغيره: الرجلان هما الوليد بن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود من الطائف.

[٣٢] ثم إنه جل وعلا ردًّا علىٰ اقتراحهم هذا، قال: أهم يقسمون النبوَّة بآرائهم وأمزجتهم حيث شاؤوا؟! أما علموا بأننا نحن الذين قسمنا بينهم معيشتهم في الدنيا؟؛ ونحن الذين رفعنا بعضهم فوق بعض درجات في الدنيا؟، فهذا غني وهذا فقير، وهذا قوي وهذا ضعيف، وقد فعلنا ذلك ليستخدم بعضهم بعضًا في حوائجهم ومصالحهم؛ فرضوا بذلك ولم يعترضوا؛ فلماذا لا يرضون باختيارنا لمحمد ﷺ؟، واعلم يانبي الله أن رحمة ربك بإدخالهم الجنة لو آمنوا واتقوا خير مما يجمعون من حطام الدنيا الفاني.

[٣٣] ثم أخبر جل وعلا أنه لولا خشية أن يفتتن الناس، ويصيروا أمة واحدة في الكفر؛ لخصصنا هذه الدنيا بالنعم والمغريات للكفار؛ وجعلنا لهم القصور العالية وجعلنا سقفها وسلالمها ومصاعدها التي يصعدون ويرتقون عليها من فضة.

ولكن لحكمته ورحمته بعباده المؤمنين الذين ربما تستهويهم المتع والشهوات، كما قال تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ...﴾ [آل عمران:١٤]، ؛ أن قسم الأرزاق حسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية؛ فلو أُعطيت كل نفس ما اشتهت لاستمرأ الخلق ذلك، وأنساهم ذكر الله وعبادته التي خلقوا لها؛ وحينئذ يكون الناس كلهم أمة واحدة في الكفر.

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن
كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا
فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ
أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ
بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ
إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ
ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا
نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى
وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ
إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ
وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ
أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾



[٣٤-٣٥] وأيضًا لجعل جل وعلا لبيوتهم أبوابًا من فضة، ولجعل لهم أيضًا سررًا من فضة يتكؤون عليها. وَلِزُخْرُفًا لهم دنياهم بأنواع الزخارف، وليس كلّ ذلك إلا من متاع الحياة الدنيا الفانية الزائلة التي يشوبها الكدر والتنغيص، والتي لا تتجاوز الإقامة فيها إلا أيامًا معدودة ليس لها قيمة بالنسبة لنعيم الآخرة والسرمدي، أما الآخرة ونعيمها المقيم فقد أعده الله وهيأه لعباده المتقين إياه بتوحيده، وفعل ما يحبه الله ويرضاه، والبعد عما يكرهه الله ويأباه.

[٣٦] ثم بين جل وعلا أن من يُعْرِضُ عن ذكر الرحمن وهو القرآن الكريم، الذي أنزله سبحانه رحمة للعالمين، وَيُعْرِضُ كذلك عن جميع ما يذكر به جل وعلا، ويفضل الاستمتاع بزهرة الحياة الدنيا ويصرف وقته كله في ذلك، نسلط عليه شيطانًا ليغويه، جزاء له على إعراضه عن ذكر الله، ونجعل هذا الشيطان ملازمًا ومصاحبًا له، يمنعه من فعل الخيرات، ويحثه على فعل الذنوب والمنكرات.

[٣٧] ثم بين جل وعلا أن وظيفة هؤلاء الشياطين أنهم يصدون الفاسقين المعرضين عن ذكر الله، ويحجبونهم عن الصراط المستقيم، والدين القويم، ويزينون لهم باطلهم وضلالهم وغيهم حتى يظنوا أنهم مهتدون، وللحق مصيبون.

[٣٨] ثم بين جل وعلا أن هذا المعرض عن ذكر الرحمن إذا ما جاء يوم القيامة ومعه قرينه الشيطان للحساب والجزاء، يتولاه الندم والحسرة فيقول لقرينه: وددت أن بيني وبينك بعد ما بين المشرق والمغرب، فبئس القرين أنت، لقد أغويتني وأبعدتني عن ذكر ربي.

[٣٩] واعلموا أيها المعرضون عن ذكر الله أنه لن ينفعكم اليوم ندمكم أو تمنيكم، بعد أن تبين لكم أنكم كنتم ظالمين لأنفسكم بالشرك والمعاصي؛ فإنكم اليوم أنتم وقرناؤكم مشتركون في العذاب، كما كنتم في الدنيا مشتركون في الكفر والضلال، ولن يفيدكم اشتراككم في الضلال إلا خسارًا وبعدًا عن رحمة الله.

[٤٠] ولما كان ﷺ حريصًا على هداية قومه، وكان يحزنه صدودهم عن الهدى والحق، قال جل وعلا مسليًا له: هل تستطيع يانبي الله أن تسمع من أصمَّه الله عن سماع الحق؟، أو تهدي من كان أعمى القلب والبصيرة؟، أو تهدي من كان في ضلال بيِّن واضح عن الحق؟ فاعلم أنك لن تستطيع هداية من كان هذا شأنهم، وما دام أن الأمر كذلك فسر في طريق الدعوة التي أمرك الله بها، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، واعلم أن الله طبع على قلوبهم بسبب إصرارهم على الكفر ومحاربة رسل الله؛ فإثباتهم على كفرهم جزاءً وليس ابتداءً.

[٤١-٤٢] ثم بين جل وعلا لنبيه ﷺ أنه إذا توفاه قبل أن يرى انتقام الله من هؤلاء المشركين؛ فسوف ينتقم الله منهم ويعاقبهم إذا أراد بحسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته. أو يريه جل في علاه العذاب الذي وعدهم قبل موته، وهو قادر سبحانه على هذا وعلى هذا، ولا يستطيعون أن يفوتوه أو يهربوا منه.

[٤٣] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يستمسك بالذي أمره به في هذا القرآن الذي أوحاه إليه؛ ثم أخبره بأنه على صراط مستقيم لا اعوجاج فيه ولا اضطراب، وهو دين الإسلام. ولا شك أنه ﷺ استمسك بما أمره الله به، وبذل كل جهده في إبلاغ الرسالة، ولكن المقصود: أنه يؤمر ليبلغ أمته والدعاة والعلماء أن يستمسكوا بهذا الذكر، وهذا الدين العظيم.

[٤٤] واعلم يانبي الله أن هذا القرآن شرف وعزة لك ولأمتك؛ حيث نزل بلغتهم، وكُلفوا باتباعه، والاستمساك بتعاليمه، وإبلاغه للعالم كله، وسوف يُسألون يوم القيامة إذا لم يتبعوه، ولم يستمسكوا بتعاليمه، ولم يبلغوه لغيرهم.

[٤٥] واسأل يانبي الله من أرسلنا قبلك من رسلنا: هل أذن الله بعبادة غيره والإشراك به في ملة من الملل، أو دين من الأديان، أو شريعة من الشرائع؟!، وفي هذا تنبيه لقريش على خطئهم الفاحش، وشركهم القبيح من إصرارهم على عبادة غير الله، ودلَّ هذا على أنه ليس للمشركين حجة نافعة صحيحة في شركهم وعبادتهم غير الله، لا من عقل صحيح، ولا نقل عن الرسل.

[٤٦] يخبر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أنه أرسل كليمه موسى عليه السلام إلى الطاغية فرعون وقومه المجرمين، بالآيات التسع الدالة على صحة نبوته وما يدعو إليه، فقال موسى ناصحًا ومرشدًا لهم: إني رسول رب العالمين.

[٤٧] ثم بين سبحانه حين جاء موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه بهذه الآيات والحجج والبراهين الواضحة قابلوه بالضحك والسخرية، وما زادت هذه الآيات هؤلاء المشركين إلا كفرًا وعنادًا واستكبارًا.

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم
بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّٰحِرُ ٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ
قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن
تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ
وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ
مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ
فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا
ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ
سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا
إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ
هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ
إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾
وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾



[٤٨] يخبر جل وعلا أنه عرض علىٰ فرعون وقومه الآيات والمعجزات، وأن كل آية أو معجزة تعرض تكون أكبر وأعظم من التي سبقتها، وأنه أخذهم بألوان من العذاب كالجراد والقمل والضفادع والدم؛ كل ذلك لعلهم يرجعون عن شركهم وكفرهم إلىٰ توحيد الله واتباع رسُله.

[٤٩] ثم أخبر جل وعلا أن فرعون وقومه قالوا لموسىٰ إما تهكُّمًا واستهزاءً وإما توقيرًا واحترامًا؛ لأنهم كانوا يسمون العالم ساحرًا: ياأيها الساحر ادع لنا ربك بما وعدتنا به من كشف العذاب عنَّا لو أنَّا آمنَّا بك واتبعناك، فلو كُشف عنا العذاب فسنهتدي لدعوتك، ونؤمن بك وبما جئتنا به.

[٥٠] فدعىٰ موسىٰ عليه السلام ربه بكشف العذاب عنهم، ولكن الله جل وعلا أخبر أنه لما كشف العذاب وأزاله عنهم؛ إذا هم ينكثون عهدهم، ويستمرون علىٰ كفرهم وتكذيبهم.

[٥١] ثم ذكر جل وعلا جانبًا من تكبر فرعون وغطرسته وتجبره، واستخفافه بعقول قومه، فقال: ياقوم أليس لي ملك مصر لوحدي؟! لا ينازعني فيه أحد؟!، وهذه الأنهار الجارية من النيل تجري من تحت قصري وبساتيني؟! أفلا تنظرون إلىٰ ذلك الملك العظيم فتستدلون به علىٰ عظمتي؟!

[٥٢] ثم قال لقومه: هل أنا أفضل أم هذا الذي هو ضعيفٌ حقيرٌ ليس له من الملك شيء؟!، ولا يحسن الكلام، ولا يستطيع أن يفصح وأن يُبيِّنَ عما في نفسه؟! يقصد بهذه الإساءة كليم الرحمن موسىٰ عليه السلام.

[٥٣] وقال لقومه أيضًا: هلَّا لو كان صادقًا فيما يدعي أن يُحَلَّىٰ بأسورة من ذهبٍ تدل علىٰ عزه وغناه؟! أو أن تجيء معه ملائكةٌ تصفُّ بجانبه تصدقه فيما يدَّعي من النبوة والرسالة؟!

[٥٤] وبهذا الأسلوب الذي لا حجة فيه ولا برهان، استخفَّ فرعون عقول قومه؛ فأطاعوه وصدَّقوه، خفَّةً منهم ورعونة، إنهم كانوا قومًا فاسقين، أي: خارجين عن طاعة الله.

[٥٥] وبسبب طغيان فرعون وقومه وعنادهم، وإصرارهم علىٰ الكفر والضلال، وتكذيب موسىٰ عليه السلام؛ غضب الله عليهم غضبًا شديدًا، وكانت نتيجة هذا الغضب انتقام الله منهم بالإغراق بماء البحر.

[٥٦] ثم بين سبحانه أنه جعلهم قدوةً لمن عمل بعملهم -من الكفر والتكذيب وطاعة أكابر المجرمين- في استحقاق العذاب، وجعلهم أيضًا عظةً وعبرةً للمعتبرين.

[٥٧] يخبر جل وعلا عن محاجة عبدالله بن الزِّبَعْرَىٰ للنبي ﷺ بعبادة النصارىٰ لعيسىٰ ابن مريم عندما نزل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]؛ ففرح عبدالله بن الزِّبَعْرَىٰ بذلك، وكان ذلك قبل إسلامه، فقال للنبي ﷺ: أخاصَّة هذه الآية يا محمد لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم، فقال النبي ﷺ: «**هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم**»(١)، فقال: خَصَمْتُك ورب الكعبة، ألست تزعم أن عيسىٰ ابنَ مريم نبيٌّ، وقد عبدته النصارىٰ؟؛ فإن كان عيسىٰ في النّار فقد رَضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه؛ فلما سمع مشركو مكة هذه المحاجَّة فإذا أصواتهم وصياحهم ترتفع فرحًا ظنًّا بجهلهم أن ابن الزِّبَعْرَىٰ انتصر علىٰ النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١]، أي: إن كل من رضي أن يعبد من دون الله؛ فسوف يلقىٰ في النار لأن الراضي كالفاعل، ولا شك أن عيسىٰ عليه السلام لم يكن راضيًا بذلك، وكذلك عزير والأولياء الذين يطاف علىٰ قبورهم وتذبح لهم الذبائح، كل هؤلاء وغيرهم لم يكونوا راضين بما يقوم به أتباعهم من أفعال شركية.

[٥٨] ثم قال مشركو قريش: هل آلهتنا التي نعبدها خير وأفضل أم المسيح ابن مريم؟ فإذا كان من عُبد من دون الله سيدخل النار فنحن نرضىٰ أن تكون آلهتنا مع عيسىٰ، - وهذا جهلٌ عظيمٌ منهم، ومخاصمةٌ بالباطل، وما قال المشركون هذا القول إرادةً للحق، إنما قالوه لإرادة المخاصمة والمجادلة بالباطل، وهم قوم شديدو الخصومة، كثيرو اللدد، عظيمو الجدل بالباطل ليدحضوا به الحق.

[٥٩] واعلموا أن عيسىٰ ابن مريم عليه السلام ما هو إلا عبدٌ من عبادنا، أنعمنا عليه وفضلناه بالنبوة والحكمة والعلم والعمل، وجعلناه مثالًا لبني إسرائيل يعرفون به قدرة الله جل في علاه علىٰ إيجاده من غير أب.

[٦٠] ثم بين جل وعلا وأكد علىٰ كمال قدرته، بأنه لو شاء لأهلك بني آدم جميعًا وجعل بدلًا منهم ملائكة في الأرض يعمرونها ويخلفونهم فيها.

---

(١) قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٥٤): غريب. وقال الطيبي في فتوح الغيب (١٤/ ١٦٢): ليس يثبت.

وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ
مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ
٦٢ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ
وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ
٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ
٦٤ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ
مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٦٥ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن
تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٦٦ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ
بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ
عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ
تُحۡبَرُونَ ٧٠ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ
وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ٧١ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ
تَعۡمَلُونَ ٧٢ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣



[٦١] واعلموا أيها الناس أن نزول عيسىٰ عليه السلام من علامات الساعة الكبرىٰ؛ فلا تشكوا في قيامها، ولا تكذبوا بذلك، وقل لهم يانبي الله: اتبعوني فيما آمركم به من التوحيد، واجتناب الشرك، فأنا أدعوكم إلىٰ طريق مستقيم موصِل إلىٰ الحق.

[٦٢] واحذروا أن يصدنكم الشيطان ويمنعنكم عن اتباع الحق بهذه الوساوس التي يلقيها في صدوركم، فإن الشيطان لكم عدوٌّ بين العداوة.

[٦٣] ولما بُعث عيسىٰ عليه السلام إلىٰ بني إسرائيل قال لهم: إني قد جئتكم بالدلائل الواضحات علىٰ وحدانية الله، وجئتكم بالنبوة والعلم، لأبين لكم صواب ما تختلفون فيه، فاتقوا الله بتوحيده وامتثال أمره، واجتناب نهيه، وصدقوني فيما أخبركم به، وأطيعوني فيما آمركم به.

[٦٤] واعلموا أن الله هو ربي وربكم فوَحِّدوه، وأخلصوا له العبادة، فهذا هو الصراط المستقيم، والدين الحقّ القويم.

[٦٥] ثم أخبر جل وعلا أن النصارىٰ اختلفوا في أمر عيسىٰ عليه السلام، وصاروا فرقًا وأحزابًا؛ فمنهم من زعم أنه الله، ومنهم من قال: إنه ابن الله، ومنهم من قال: ثالث ثلاثة - تعالىٰ الله عما يقول الكافرون الظالمون علوًّا كبيرًا -؛ فويلٌ وهلاكٌ وعذابٌ ينتظر الذين ظلموا وتجاوزوا حدودهم في وصف عيسىٰ عليه السلام بغير ما وصفه الله.

[٦٦] فهل ينتظر هؤلاء المكذِّبون المفترون المختلفون في أمر عيسىٰ عليه السلام إلا الساعة أن تقوم عليهم، وتأتيهم فجأةً؟ وهم لا يتوقعون مجيئها، وغير مستعدين لها؟!

[٦٧] ثم بين جل وعلا أن الأصحاب والأصدقاء والأحِبَّاء حين تأتيهم الساعة يعادي بعضهم بعضًا، وتنقلب محبتهم عداوة؛ إلا المتقين الذين تآخوا وتحابُّوا في الدنيا علىٰ توحيد الله وطاعته، والعمل في رضاه نسأل الله الكريم من فضله.

[٦٨] ثم ينادي جل وعلا هؤلاء المؤمنين المتحابين في الله، ويقول لهم: ياعبادِ لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه اليوم من أمور، ولا حزن يصيبكم فيما مضىٰ.

[٦٩] ثم بين جل وعلا بأنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون لأنهم آمنوا بالله واتبعوا رُسُلَه، وصدقوا ما جاؤوهم به، وعملوا الصالحات، واستسلموا لله بالتوحيد وانقادوا له بالطاعة.

[٧٠] ثم يأمر جل وعلا بإدخال هؤلاء المؤمنين الجنة دار النعيم المقيم، وإدخال كل من كان علىٰ مثل ما كانوا عليه؛ فيُنعَّمون ويُكرمون في جنات النعيم.

[٧١] ثم ذكر جل وعلا بعض نعيم أهل الجنة وكرامتهم، فقال: إن أهل الجنة يُطاف عليهم بالطعام في آنيةٍ من ذهب، وبالشراب في أكْوابٍ من ذهب، ولهم في الجنة ما تشتهيه وتتمناه أنفسهم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، وأنتم - ياأهل الجنة - خالدون ماكثون فيها أبدًا لا تخرجون منها.

[٧٢] واعلموا أيها المؤمنون أن دخولكم هذه الجنة كان بسبب أعمالكم الصالحة المقبولة، فجعلها جل في علاه من فضله ورحمته جزاء لكم.

والباء في قوله: ﴿بِمَا﴾ باء السبب، وليست باء العوض.

[٧٣] ثم اعلموا أيها المؤمنون أن لكم في الجنة من أنواع الفواكه والثمار الشهية الشيء الكثير، تتخيرون وتأكلون منها ما تشاؤون، نسأل الله الكريم من فضله.

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ
فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾
وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ
جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا
فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ
وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ
ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ
ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ
إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا
مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ
لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾



[٧٤-٧٥-٧٦] ثم أخبر جل وعلا أن المجرمين الذين اقترفوا الشرك والكفر بالله ورسله في عذاب جهنم ماكثون، لا يتحولون عنه ولا يزولون. ولا يُخَفَّفُ عنهم العذاب، وهم فيه آيسون من كل خير ونجاة. ثم بين سبحانه بأنه لم يظلمهم بإدخالهم النار، ومُكْثهم في العذاب، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك، وتكذيب الأنبياء والرسل.

[٧٧] وهؤلاء المجرمون بعد أن أدخلهم الله النار ينادون مالكًا وهو خازن جهنم، فيقولون: يامالك ليمتنا ربك أحب إلينا من هذا العذاب الأليم؛ فيجيبهم مالك: إنكم ماكثون فيها أبد الآبدين، لا خروج لكم منها، ولا يقضىٰ عليكم فستريحوا من عذابها.

[٧٨] ثم يقول لهم مالك مؤنبًا لهم: لقد جاءكم الله بالدين الحق، وأرسل إليكم الرسل، وأنزل عليكم الكتب، ولكن أكثركم للحق كارهون، وعنه معرضون.

[٧٩] أخبر جل وعلا أن المشركين يظنون أنهم أحكموا ودبَّروا وكادوا للنبي ﷺ كيْدًا شديدًا لتكذيبه وللصدِّ عن دينه؟! لقد خاب ظنهم ، لأن مكره جل في علاه أعظم من مكرهم، وأنه سبحانه محكم أمرًا ومدبر تدبيرًا يعلو تدبيرهم، وأنه سوف يهلكهم بالعذاب والنكال.

[٨٠] ثم قال جل وعلا علىٰ سبيل التوبيخ: هل يظن هؤلاء الجهلة أنا لا نسمع ما يسرون ويتناجون به بينهم؟! بلىٰ نسمع ذلك، ونعلم به، وملائكتنا الحفظة يكتبون جميع ما يصدر عنهم من قول أو فعل.

[٨١] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين علىٰ سبيل الفرض: إن ثبت أنَّ للرحمن ولدًا كما تزعمون وتفترون؛ فأنا أول العابدين له؛ تقدّس وتنزّه سبحانه عما يقول هؤلاء المجرمون الضالون.

[٨٢] ثم نفىٰ ﷺ الولد عن الله تنزيهًا وتقديسًا له، فهو رب السماوات والأرض وما فيهن وما بينهما، رب العرش العظيم، وهو المتعالي عن كل ما وصفه به هؤلاء الظالمون الفاسقون من صفات لا تليق بجلاله وعظمته وسلطانه، فهو الغني عن الولد وغيره.

[٨٣] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يترك هؤلاء المفترين علىٰ الله أن يستمروا في أباطيلهم ولهوهم، حتىٰ يلاقوا يومهم الذي هو يوم القيامة الذي سنحاسبهم فيه علىٰ أعمالهم، ثم نعاقبهم بالعقوبة التي يستحقونها، بعد أن أقام عليهم الحجة.

[٨٤] ثم أخبر جل وعلا بأنه إله جميع الكائنات السفلية والعلوية، وأنه المعبود بحق في السماء، والمعبود بحق في الأرض، وهو الحكيم في جميع أقواله وأفعاله، العليم بكل شؤون خلقه، لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٨٥] وهذا الإله المعبود بحق في السماء وفي الأرض لقد تعاظم وتكاثر خيره، وهو الواحد الأحد الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، وهو سبحانه المتفرد بعلم الوقت الذي تقوم فيه الساعة، وإليه أيها الناس ترجعون من بعد مماتكم؛ فيجازي كلًّا بما يستحق.

[٨٦] ثم بين جل وعلا أن الذين يُعبَدون من دون الله لا يملكون الشفاعة لأحد؛ بل لا يشفعُ أحدٌ لأحدٍ إلا بإذن الله، ولا بد أن يكون الشافع والمشفوع له من أهل كلمة الحق والإخلاص، كلمة: لا إله إلا الله، وهم علىٰ علمٍ وبصيرةٍ بما شهدوا به.

[٨٧] واعلم يانبي الله: لو سألت هؤلاء المشركين من قومك من الذي خلقهم؟ لأجابوا مقرين ومعترفين بأنه: الله جل في علاه، فما دام أنكم تقرون بذلك وتعترفون به، فكيف تصرفون العبادة إلىٰ غيره سبحانه وتعالىٰ؟

[٨٨-٨٩] ثم قال النبي ﷺ شاكيًا لربه: يارب إن هؤلاء القوم لا يؤمنون بك، ولا يوحدونك، ولا يخلصون لك العبادة، ولا يصدقوني، ولا يتبعوني فيما أُرسلتُ به إليهم. فأمره جل وعلا أن يصفح عنهم، وأن يعرض عما يلحقه منهم من أذىٰ، وهذا يسمىٰ: صَفْحُ مُتَارَكَةٍ، أي: أعرض عنهم واتركهم، ثم هدد جل في علاه هؤلاء الكافرين المعاندين؛ فأخبر بأنهم سوف يعلمون ما يلقونه من البلاء والنكال بسبب كفرهم وعنادهم. والصفح في هذه الآية لا يعني التوقف عن الدعوة؛ بل يستمر في دعوته مع الإعراض عن أذاهم.